تعريف العروبة:

تطلق العروبة في لسان العرب على أمرين أساسيين:

الأول: تطلق العروبة على لغة العرب لساناً، فيقال: عرب الرجل، وعرب لسانه عروبة إذا كان عربياً فصيحاً، وعرب يعرب إذا فصح لسانه بعد لكنة.

الثاني: تطلق العروبة على العرب جنساً، فيقال: عرب الرجل يعرب عروبة، وأعرب عروبة، إذا صار عربياً[1].

ومن اجتماع اللغة والجنس مع وحدة الفكر والمبدأ والاعتقاد تتكون الأمة.

ولذلك سوف أتناول الموضوع من هذه الجوانب الثلاثة، وأقسمه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: العروبة لساناً عند إقبال.

الثاني: العروبة جنساً عند إقبال.

الثالث: الأمة العربية في نظر إقبال، فكراً وعقيدة، في الماضي، والحاضر، والمستقبل، ثم الخاتمة.

القسم الأول: اللسان العربي عند إقبال:

تنسب العربية إلى يعرب بن قحطان، أبي اليمن، وهو أول من تكلم العربية[2]، ولا نريد الدخول في الناحية التاريخية السحيقة، لنقتصر الحديث على أهم مرحلة في اللغة العربية، عندما اختارها الله سبحانه وتعالى لغة لكلامه، وأنزل فيها كتابه المبين / القرآن الكريم/ بلسان عربي

---

(١) القاموس المحيط ١/١٠٢، المصباح المنير ١/٤٦.

(٢) القاموس المحيط ١/١٠٢.

فصيح ، واصطفى في خيار أهلها محمد بن عبد الله ﷺ ، ليكون رسوله إلى خلقه ، وخاتم أنبيائه ، وبعثه رحمة للعالمين نذيراً وبشيراً ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم سواء السبيل بالشرع القويم.

وإن النصوص الشرعية وردت باللغة العربية ، وعلى حسب قواعدها وأساليبها ، وفي أعلى درجة من بلاغتها وفصاحتها ، وأنزل الله كتابه على مقتضى اللغة العربية ، وبيّن الرسول ﷺ دين الله وشرعه وأحكامه بدلالات اللغة العربية.

فالقرآن الكريم دستور المسلمين ، وكلام رب العالمين ، والمصدر الأول للهداية والإيمان ، والعقيدة والشريعة ، والعبادة والأخلاق ، نزل بلسان عربي مبين.

وجاءت الأحاديث النبوية الشريفة بلغة عربية خالصة ، لذلك أصبحت علوم العربية أساسية وضرورية في معرفة الأحكام الشرعية ، وتفسير القرآن الكريم ، وبيان السنة النبوية ، وأداء العبادات الإسلامية ، والأذكار الدينية.

ومن هنا اهتم العلماء المسلمون ـ في أصقاع العالم ، ومن مختلف الشعوب والأجناس ـ بعلوم اللغة العربية ، وكانوا يبدؤون بدراستها وتعلمها ، ويقرنونها بالعلوم الشرعية ، ويتبحرون بها ويتخصصون بفروعها ، ويمارسون التأليف والتدريس فيها.

ونص علماء أصول الفقه على أن معرفة العربية وعلومها أحد شروط الاجتهاد والاستنباط ، وقال أئمة الفقه وعلماؤه: إن تعلم العربية فرض وواجب وضروري لتلاوة القرآن الكريم ، وصحة الصلاة ، وقال علماء التفسير: إن العلم بالعربية أحد شروط التفسير ومقوماته ، وقال مثل ذلك علماء التوحيد والعقيدة ، وشراح الحديث.

يقول الإمام الشافعي: «فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب

ما بلغه جهده ، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك».

ثم يقول الشافعي رحمه الله: «وما ازداد من العلم باللسان ، الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته ، وأنزل به آخر كتبه: كان خيراً له ، كما عليه أن يتعلم الصلاة والذكر فيها ، ويأتي البيت ، وما أمر بإتيانه ، ويتوجه لما وُجّه له ، ويكون تبعاً فيما افترض عليه ، وندب إليه ، لا متبوعاً»[1].

وهكذا نشر الإسلام اللغة العربية بين المسلمين ، وصبغ بها المجتمع المسلم خارج البلاد العربية، وكان اعتناق الإسلام، وحب الرسول ﷺ ، والصدق في الإيمان والعزيمة في الدين ، والحرص على تلاوة القرآن وأداء العبادات دافعاً للمسلم إلى أن يتعلم العربية ، وباعثاً له للنطق بها ، فصارت اللغة العربية لغة عالمية ، وتبوأت المكان اللائق بها.

ونتيجة لحث الإسلام على العلم والتعلم في جميع مجالات الحياة ، وتوجه المسلمين لطلب العلم والتعلم في جميع فنون المعرفة ، ومن مختلف الثقافات القديمة والحضارات الأجنبية ، وترجمة هذه العلوم إلى العربية ، أصبحت اللغة العربية لغة العلم ، ولغة الحضارة الإنسانية ، ولغة الثقافة العالمية ، وبذلك توسع مضمونها ، وأثرى فكرها ، وتوسع اشتقاقها ، وهذا ما قصده الإمام الشافعي بقوله: «ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً»[2].

واتجهت الشعوب غير العربية إلى تعلم العربية لسببين:

---

(١) الرسالة ص٤٨ ـ ٤٩.

(٢) الرسالة ص٤٢.

الأول: ديني بالنسبة للمسلم غير العربي ، فإنه يتعلق بالعربية ، وينتمي إليها ، لأنها لغة دينه وعقيدته ، ولغة شرعه وأحكامه ، ولغة نبيه وتاريخه ، ولغة قرآنه وعبادته وذكره.

الثاني: ثقافي بالنسبة لغير المسلمين من الأعاجم الذين لم يدخلوا الإسلام ، ومع ذلك اتجهوا إلى تعلم العربية ، لأنها لغة العلم ، ولغة الحضارة ، ولغة الثقافة والأدب[1].

ونذكّر هنا برسالتين كتبهما نصارى الأندلس ، تبكيان لغة اللاتين والإغريق ، وتنددان بالنصارى الذين أهملوا لغتهم ، وأقبلوا على اللغة العربية[2].

الأولى: لكاتب معروف هو الفارو ، جاء فيها: «أن أرباب الفطنة والتذوق ، سحرهم رنين الأدب العربي ، فاحتقروا اللاتينية ، وجعلوا يكتبون للغة قاهريهم دون غيرها».

الثانية: وجاء فيها: «إن إخوتي المسيحيين يعجبون بشعر العرب ، وأقاصيصهم ، أو يدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لإدحاضها والرد عليها ، بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح ، وأأسفاه ، إن الجيل الناشىء من المسيحين الأذكياء لا يحسنون أدباً ولا لغة ، غير الأدب العربي واللغة العربية وأنهم يلتهمون كتب العرب ، ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان ، ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية ، في حين يسمعون بالكتب المسيحية فيأنفون من الإصغاء إليها ، محتجين بأنها شيء

---

(١) انظر أقوال الأدباء والمفكرين النصارى المعاصرين في كتاب «الأمة العربية ص٨٢».

(٢) نشر الرسالتين كثير من الإسبان والعرب منهم دوزي في كتابه «الإسلام الأندلسي» وشكيب أرسلان في كتابه «الحلل السندسية» عن أسبوع الفقه ص٧٤٩.

لا يستحق منهم مؤونة الالتفات ، فيا للأسى إن المسيحيين قد نسوا لغتهم ، فلن تجد فيهم اليوم واحداً من كل ألف يكتب بها خطاباً لصديق ، أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب ، وقد ينظمون بها شعراً يفوق شعر العرب أنفسهم في الأناقة ، وصحة الأداء» .

هذا بالنسبة لغير المسلمين ، وأما المسلمون فلم يقتصر الملايين منهم على مجرد تعلم العربية للعبادة ، بل قاموا بخدمتها والعناية بها ، والتأليف فيها ، والنظم بها ، ومن هؤلاء الملايين فيلسوف الإسلام العلامة الشاعر محمد إقبال .

وكان لعلماء الإسلام وأئمته من غير العرب فضل كبير في خدمة العربية ، والتأليف فيها ، وكانوا يتباركون بدراستها ، لأنها قربى من رب العالمين ، وخدمة للقرآن الكريم ، وتدبر لآياته ، وفهم لمعانيه ومقاصده ، ومن هنا برز أعلام كبار منهم في علوم العربية ، وأكثرهم من غير العرب حبّاً في لغة القرآن الكريم والنبي العربي ﷺ ، وتاريخ الثقافة العربية أكبر شاهد على ذلك ، وخاصة ما وصلنا من التراث العربي الزاخر .

ونكتفي بذكر أنموذج واحد منهم ، هو العلامة الزمخشري الذي يقول فيه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : «لعل ذلك المثل السائر الذي فاضت به الحكمة الفطرية «رب أخ لك لم تلده أمك» لم ينطبق يوماً على متآخيين متناصرين ، على بعد الأواصر ، وتباين العناصر ، كما انطبق على ما بين اللغة العربية ذاتها ، وبين حبيبها وربيبها : فخر خوارزم ، جار الله ، أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، فلقد نشأ متيماً بالعربية ، متفانياً فيها ، منقطعاً لروايتها وتحقيقها وخدمة علومها ، مفضلاً لها ، مناصراً لخصائصها ومعارفها ، ومحارباً للمستنقصين قدرها من الشعوبيين ،

معتزاً بما نال من المعرفة فيها ، وشرف الانتساب إليها . . . . ، ولقد افتنَّ في تآليفه العجيبة بالتنويه بالعربية ، وفضلها ، وعجيب أمرها ، وبارع محلها . . . ، ولقد أبدع الزمخشري في العربية علماً وذوقاً ، ورواية وإنشاء»[1] .

إقبـال والعـربيـة :

ولد إقبال من أصل هندي ، ونشأ نشأة إسلامية ، فتعلم العربية ، وصار ملماً بها ، ثم أقبل على تلاوة القرن الكريم ، وفهم معانيه ، وتذوق أساليبه ، وتدبر ألفاظه وكلماته ، وكان يُثابر على تلاوة كلام الله العربي ، ويعتقد بالسر البياني في لغة القرآن العربية ، وتجتذبه فصاحة القرآن وبلاغته ، فيواظب على تلاوته بعد صلاة الصبح يومياً ، وتحت إشراف والده ، وهنا لا ندري بأيهما نعجب بالأب أم بالابن ، فقد كان أبوه يسأله كل يوم ، وعلى فترة ثلاث سنوات : ماذا تصنع يا إقبال بعد صلاة الصبح؟ ويقول إقبال: كنت أقول لوالدي: لماذا تسألني عما أعمل ، وأنت تعلم ما أعمل؟ فيقول لي والدي: «إني أعلم أنك تقرأ القرآن بعد الصلاة ، ولكني أريد أن تقرأه وكأنه أنزل عليك»[2] ، ولم يقتصر على تلاوة القرآن للعبادة وفي الصلاة ، بل قام يدعو به وإليه لغة وفكراً ، للصلاح والإصلاح .

ولم يكتف المرحوم إقبال بتعلم العربية ، بل عمل مدرساً للأدب العربي في نفس المعهد الذي تخرج منه ، وسعى على نشر العربية في ربوع الهند قديماً ، وباكستان حديثاً ، وعمل على إحياء الآداب العربية بين المسلمين .

---

(١) التفسير ورجاله ص٥٣ .

(٢) نداء إقبال ص٦٣ ، إقبال ، عزام ص١١ .

وكان إقبال يناله العجب والفخر من الأدب العربي ، والشعر العربي ، وما يحمله من مكارم الرجولة وصفاتها ، ومعاني البطولة والفروسية ، والدعوة إلى الجهاد ، وكان يستشهد بأبيات «الحماسة» ويدعو إلى تمثلها ، والتعلق بها ، فيقول:

بُـتَّ فكـراً ضـالعـاً فـي الأدبِ إرجعْـن يـا صـاحِ نحـوَ العـربِ
وسُلَيْمَى العرب يا صاح اعشقِ أَطْلِعَـنْ صبـح الحجـازِ المشـرقِ

ويقول إقبال عن اللغة العربية التي تحمل الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي: «إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم **إلى الثقافة العربية** بأكثر من هذا ، إنه يدين **لها بوجوده**»[1].

ويُؤكد العلامة إقبال أن تدوين العلوم عند المسلمين ، واكتشاف النظريات الإنسانية والتقنية إنما يعود إلى القرآن ، فمن ذلك ما يقوله عن ابن خلدون ونظرياته الاجتماعية: «والحقيقة أنه يبدو أن مقدمة ابن خلدون **تدين بالجانب الأكبر** من روحها إلى ما استوحاه المؤلف من القرآن ، بل هو مدين للقرآن إلى حد كبير ، حتى في أحكامه على الأخلاق والطبائع» ثم يضرب أمثلة على ذلك[2].

ويعبر إقبال عن فكره العربي ، وثقافته الإسلامية ، وإن كان لحمه وجسمه من العجم ، فإن عقله وقلبه من الحجاز ، فيقول:

«أَنا أعجمي الدِّن ، لكن خمرتي صنعُ الحجاز ، ولحنها الفينان
إن كان لي نغمُ الهنودِ ولحنُهم لكـنَّ هـذا الصـوت مـن عـدنـانِ»

وهكذا يرى إقبال ، أن العربية لم تعد مجرد لغة ، ولم تبق لساناً

---

(١) إقبال الشاعر ص١٧.
(٢) المرجع السابق ص٢٤.

فحسب ، بل أصبحت فكراً في العقل ، وعقيدة في القلب ، وترياقاً في الدم ، تسري في عروق المسلمين ، وتقترن بالقرآن الكريم الذي يعتبر منبع كل العلوم ، فيقول إقبال :

أَبَـعْـدَ كتـاب الله يبسـط مـرجـع يمـلّ علـى فحـواه سـرٌّ معقـدُ

فأنت الذي بالشعر أيقظت أمة من البؤس كانت بالأمس المرّ تَجْهَدُ

فالقرآن دستور الإسلام والمسلمين ، والعربية لسان دين الإسلام ، وفيهما الآداب الإسلامية والأحكام الإلهية ، والسعادة الأبدية ، ولا بد من الحفاظ عليها لبقاء الإسلام ، واستمرار حكم الله في الأرض ، وضمان الوجود للأمة الإسلامية ، ولذلك وجه السيد جمال الدين الأفغاني انتقاده المرّ إلى الأتراك في آخر عهدهم الأسود لترك العربية ومحاولة التتريك ، فقال: «ويسوؤني ـ وأنا ممن يحبهم ـ وأتأثر كلما افتكرت فيما ارتكبوه من الخطأ في عدم قبول اللسان العربي ، وأزداد تأثراً إذْ أراهم يرتكبون خطأ أفضح ، وهو جريهم وراء تتريك العرب ، واستبدال اللسان العربي ـ لسان الدين الطاهر ، والأدب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر ـ »[1] .

القسم الثاني: العرق العربي أو الجنس العربي عند إقبال:

كان إقبال ـ كما سبق ـ من دم هندي ، ولكن ترفع عن مستوى القوم والجنس والعرق ، وتبنى نظرة الإسلام إلى الأقوام والجنسيات عامة ، والجنس العربي خاصة ، فاعتنق الإسلام عقيدة وفكراً ، وأحب الإسلام حباً جماً ، وعشق رجالهم ، وتغنى بمآثرهم.

وإن الشعور القومي أمر فطري وغريزي لوجود الارتباط بين أفراد

---

(١) السيد جمال الدين الأفغاني ، أبو رية ص٢٠٦.